مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 01 السنة: 2021 E-ISSN :2588-2325

اللغة والذاكرة في المستعمَرات الفرنسية: السياق السنغال من لغة الثقافة إلى ثقافة اللغة!

Language and Memory in French colonies: The Senegalese context from the language of culture to the cultural language!

شيخ سيسي*، معهد الدوحة للدراسات العليا، albadawycisse260119911@gmail. com

تاريخ الإرسال: 2021/02/15 تاريخ القبول: 2021/05/29 تاريخ النشر: 2021/06/05

ملخص:

لقد حققت السلطة الرمزية للّغة في سياق الاستعمار الفرنسي بالسنغال ما عجزت المنظومات العسكرية من تحقيقه. وقد يمكن ملاحظة ذلك في أكثر من تجربة استعمارية، بالنظر إلى اللّغة كآلية أُعتمدت لطمس الذوات الجماعية وإعادة إنتاجها في هذه التجارب. إنّ طمس الذوات الجماعية لمجتمع ما وإعادة إنتاجها بشكل مختلف يستوجب الاهتمام بالذاكرة الجماعية، والاهتمام بالذاكرة في حدّ ذاتها اهتمام باللغة. وذلك باعتبار اللغة وعاءً يحمل ثقل الذاكرة. كما إنّ الاهتمام باللّغة بدوره سيكون اهتماما آخر بالثقافة. وعلى ذلك فإنّ المقولة الرئيسة التي تقوم عليها مناقشتنا لجدلية ثالوث الثقافة، اللّغة، والذاكرة؛ هي وجوب النظر إلى الثقافة من منظور إدوار تايلور الكلّي الشامل، وإلى التعبير اللّغوي على أنّه يَحْمِلُ شفرة اجتماعية للجماعة اللّغوية. بحيث تُفَكَّكُ هذه الشفرة اعتمادا على البناء الثقافي لفهم الفعل التواصلي بين أفراد الجماعة، وإلى الذاكرة ككنز ثقافي يُمثِّلُ جسر التواصل التعاقبي بين أجيال الجماعة. إنّ سحب الأفراد من ذاكرتهم الجماعية في السنغال تمثّلت في أن المستعمر الفرنسي واجه نموذج المدرسة التقليدية التي كانت موجودة. فكانت الوسيلة التي تبناها حكم الاستعمار في طمس الذاكرة الجماعية وإعادة إنتاجها، سياسات اللّغة الفرنسية التي أُعتمدتْ كلغة الإدارة ولغة المعرفة، كما كانت اللغة فرنسية عاملا أساسيا في صناعة التمايز الاجتماعي.

* المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات

الكلمات المفتاحية: اللغة، الذاكرة، الثقافة، الاستعمار الفرنسي، السنغال.

Abstract:

The symbolic power of language realized in the French colonization context in Senegal what the military institutions could not. The previously mentioned reality can be observed, in numerous colonization experiences, if we do consider the language as a tool that the colonization utilized to obliterate the social identities and reconstruct them during these experiences. Genuinely, obliterating the collective selves of any society, and differently reconstructing them, requires a serious solicitude for the collective memory. To look out a memory, implicitly, comprises the language that they indoctrinate the colonies; and that is because, it considered the container of the memory’s substance itself. Furthermore, looking out a language will at the same time represent another way of looking out the culture. Based on the above-mentioned veracities, this article aims to discuss, the necessity of intensely studying the trinity of culture, language, and memory, using the both holistic and comprehensive perspective of Taylor, and considering also the language expression; and that is because this last one carries a social cipher for the language community, and to be able to decrypt this encrypt through the social construction, and accurately comprehend the social act between the individuals, which will lead a more profound understanding of the memory, as the culture’s treasure, that represents the successive links between the diverse generations of the society. The act of deviating individuals from their social memory in Senegal can be substantiated, that the French colonization combated the traditional school that had been already there. Therefore, the strategy the foreign French authority used to demolish the Senegal social memory, and restructure it, was to impose the Senegalese its language that was adopted in both the administration, and education. What is more, the French language was a substantial factor to obviously emerge some social differentiations in the Senegalese community.

المنارة للاستشارات

Keywords: language, memory, culture, French colonization, Senegal.

مقدمة

لقد حققت السلطة الرمزية للّغة في سياق الاستعمار الفرنسي بالسنغال ما عجزت المنظومات العسكرية الفرنسية كقوة من تحقيقه على المدى البعيد. وقد يمكن ملاحظة ذلك في أكثر من تجربة استعمارية، بالنظر إلى الدور الذي تلعبه اللّغة في هذه التجارب كحركات تاريخية مفصلية حاول المستعمِر فيها طمس الذوات الجماعية وإعادة إنتاجها بالاعتماد في ذلك أساسا على آليات وسياسات لغوية. كما يمكن الادّعاء بأنّ طمس الذوات الجماعية لمجتمع ما وإعادة إنتاجها بشكل مختلف عمّا كانت عليه سابقا، يستوجب الاهتمام بالذاكرة الجماعية للمجتمع وفحص منطقها الداخلي لتفكيكها وإعادة إنتاجها. وهذا الاهتمام بالذاكرة كما تحاججه هذه الورقة سيكون بالضرورة اهتماما باللّغة التي يعتبرها البعض وعاء للذاكرة (Wa Thong'o, 2009). والاهتمام باللغة بدورها اهتمامٌ آخر بالبناء الثقافي الكلّي للمجتمع، والذي يجمع بين الاثنين (اللّغة، والذاكرة) وغيرهما حسب المنظور الأنثروبولوجي لتحديد معنى الثقافة. إنّ المقولة الرئيسة التي تقوم عليها مناقشتنا لجدلية ثالوث الثقافة، اللّغة، والذاكرة: هي وجوب النظر إلى الثقافة من المنظور التايلوري الكلّي الشامل، وإلى التعبير اللّغوي على أنّه يَحْمِلُ شفرة اجتماعية للجماعة اللّغوية، بحيث تُفَكَّكُ هذه الشفرة بالاعتماد على البناء الثقافي لفهم الفعل التواصلي بين أفراد الجماعة، وإلى الذاكرة ككنز ثقافي يُمثّلُ جسر التواصل التعاقبي بين أجيال الجماعة.

مناقشة هذه المقولة سننطلق من سؤال مركزي والذي هو: كيف يمكن مقاربة اللّغة كجهاز يعيد تأسيس علاقات القوّة، ويفكّك بناء الذّوات الجماعية في المستعمَرات ويعيد صياغته؟ ويندرج تحت هذا السؤال سؤالان فرعيان آخران وهما: كيف تُؤثر الصيغ اللغوية في التوزيع الاجتماعي للمعرفة وفي البناء الكلّي لثقافة المجتمع؟ وإلى أي حدّ تُشكّل لغة جماعة ما نشاطَهم العقلي ومواقفهم في إعطاء معنى لذواتهم؟ سنخصّص للورقة ثلاثة محاور تحليلية نحاول من خلالها الإجابة عن الأسئلة واستكشاف الارتباط والتداخل والتأثير الانعكاسي لهذه المفاهيم. في المحور الأول سنركّز على الترابط الانعكاسي بين الثقافة واللّغة، ثم في المحور الثاني نتطرق إلى طبيعة العلاقة بين اللّغة والذاكرة. وسنخصّص المحور الأخير لحالة الدراسة، أي الحالة التطبيقية التي وَظَّفَ المستعمِر الفرنسي فيها اللّغة واعتمد سياسات لغوية معيّنة لتفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة تشكيلها في السنغال. سنوظّف في هذا المحور مفاهيم ذات قدرة تحليلية وتفسيرية لطبيعة العلاقة بين اللّغة

المنارة للاستشارات

والذاكرة في السياقات الاستعمارية لغرب إفريقيا والتي هي: مفهوم Dismembering(تقطيع الأوصال)، ومفهوم Remembering (تجديد العضوية عبر إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية)، ومفهوم المجاعة اللغوية، عند Wa Thong'o (Wa Thong'o, 2009).

1. في تأصيل الترابط بين الثقافة، اللغة، والذاكرة

يمكن اعتبار الحديث عن الذاكرة "كآليات تَمَثُّلِ الماضي واستحضاره، ومسارات تشكّل هذا التمثّل من الناحية الاجتماعية والثقافية، (جبيدة، 2015، ص. 52)، حديثا عن الثقافة في ذات الوقت. وكذلك بالنظر إلى هذه الأخيرة، الثقافة، كبناء كلّي مركّب يَشْمُلُ كل ما يكتسبه الفرد كعضو في المجتمع بتعبير إدوارد تايلور. وبالتالي، قد يكون خيرُ مُنْطَلَقٍ يتأسس عليه حديثنا عن اللّغة والذاكرة، الحديث عن اللّغة والثقافة. لأنّ الذاكرة حسب التعريف أعلاه، ليست أكثر من معارف يستخلصها الفرد من تجارب الماضي للمجتمع ويُؤَسّس عليها مواقف التعامل مع معطيات الواقع وتطلعات المستقبل. وهي، الذاكرة، بهذا المعنى تُمثِّل جسر العبور للأفراد من حيثيات ماضيهم إلى الواقع ثم المستقبل. كما أنّها، أداة للتواصل التعاقبي بين أجيال الجماعة. وهي بذلك تكون جزءً لا يتجزأ من الثقافة. بل أكثر من ذلك فإنّ العلاقة بين اللّغة والذاكرة يمكن أن تستمد انعكاسيتَها من كون اللّغة، ذلك الوعاء الذي يَحْمِلُ ثقل الحضارة كما ادّعى ذلك فرانز فانون في تحليله النفسي للظاهرة اللّغوية في المستعمَرات الفرنسية (غبسون، 2013، ص. 78). ويستبدل Ngugi Wa Thong'o الذي تأثّر بفكر فانون كلمةَ الحضارة في مقولة فانون بكلمةِ الذاكرة. فتكون اللّغة عنده، ذلك الوعاء الذي يَحْمِلُ ثِقْلَ الذاكرة (Wa Thong'o ،2009, P. 73). وسنعود إلى ذلك بشكل مفصّل في جزء مخصّص له في هذه الورقة. أمّا هنا، فندّعي بأنّ أي محاولة لفهم معنى الذاكرة ومنطقها الداخلي تستوجب وضعها، الذاكرة، في البناء الثقافي للمجتمع والذي يشمل اللّغة، والنظر إليها كجزء من مكونات هذا البناء.

2. الثقافة واللّغة بين علم اجتماع اللّغة والأنثروبولوجيا الألسنية

إنّ ادّعاءً آخر لفرانز فانون والذي مؤداه: إنّ امتلاك الثقافة يفترض امتلاك لغة، وأنّ امتلاك عالم يفترض امتلاك ثقافة (غبسون، 2013، ص. 128). لا يتعارض كلّياً مع ادّعاء بيير بورديو، بأنّ الدرس اللّساني الحديث تجاوز الفصل المطلق بين اللسانيات التي تقتصر على دراسة اللّغة في باطنها، (النظم القواعدية والتركيبات والأصوات) واللّسانيات التي تهتم بما هو خارج عنها (بورديو، 2013، ص. 49). أي تلك التي تهتم بدراسة الاستعمالات الاجتماعية للّغة (اللّسانيات الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الألسنية وعلم اجتماع اللّغة). فارتباط اللّغة بالثقافة وارتباط الثقافة

المنارة للاستشارات

باللّغة اتّخذ أبعادها المنهجية وإشكالاتها الإبستمولوجية إثر تَأَثُّرِ فرديناند دو سوسير (رائد الفكر البنيوي في اللسانيات الحديثة) بمداخلات إيميل دوركايم في النظر إلى الواقعة الاجتماعية كقوّة قاهرة على الأفراد تستمد شرعيتها من المؤسسات الاجتماعية مثل الأسرة، والثقافية مثل منظومة العادات والمعتقدات. فاللّغة عند دوركايم، ظاهرة اجتماعية تتسمى فوق وعي الأفراد وتجبر على هذا الوعي تَقَبُّلَها (بورديو، 2013، ص. 53). هذا بالإضافة إلى إسهامات الدارسين في الأنثروبولوجيا الألسنية الذين ينظرون إلى اللّغة كمَوْرِدٍ ثقافيٍّ يتجسّد في الكلام كممارسة اجتماعية (دورنتي، 2013، ص. 32). بلغة أخرى، إنّ اللّغة حسب تقليد الأنثروبولوجيا الألسنية، ثروة ثقافية تُسْتخدم في فعل الخطاب كممارسة اجتماعية. وهكذا ارتبطت اللّغة بالثقافة بشكل أسفر عن تَفَرُّعِ الاهتمامات وتشعب الدراسات الألسنية. وبدأ الاهتمام بالأبعاد الثقافية للظاهرة اللّغوية. ولم ينحصر هذا الاهتمام على المستوى النظري فحسب وإنّما شمل هذا الاهتمامُ دراساتٍ تطبيقيةٍ للبعد الرّمزي والمرئي والإشاراتي للتواصل البشري تحت فرعٍ لسانيٍّ خاص بذلك "السيميولوجيا" (علم الإشارات). إنّ هذا التحوّل البنيوي للتقليد اللساني الكلاسيكي من الاهتمام الباطني باللّغة كجهاز مستقل عن البعد الثقافي في المجتمع شَكَّلَ نقلةً نوعيةً في البعد المنهجي في اللسانيات، وخلق نوعا من التواصل المعرفي بين هذا المجال وعلم اجتماع اللّغة والأنثروبولوجيا الألسنية. يقول تشومسكي: " مهمة اللّساني هي أن يكشف آليات البنى في ذهن المتكلم وكيفية نشوئها، وأن يذهب وراء ذلك ليكشف المبادئ العظيمة التي يقوم أنحاء اللّغة عليها. وأن يصل باكتشافها إلى نظرة أعمق في أعماق طبيعة اللّغة البشرية والفكر البشري (تشومسكي، 2017، ص. 56). فالمبادئ العظيمة التي يقوم أنحاء اللّغة عليها في اعتقادي يمكن أنْ تتمثّل في الأبعاد الاجتماعية للّغة. ويؤكد على ذلك تعريف نيقولاس أوستلر Nicholas Ostler للّغة؛ بأنّها صورة تعني عن الحكاية الشخصية الحقيقية لشعب ما، وهي ما يفسّر جانبا من سلوكهم (كرامش، 2010، ص. 24). فالبناء الثقافي لأي مجتمع يجبر على اللّغة أن تستكشف عن إمكاناتها وقدراتها عبر إجراء اجتماعي معقّد يتمثّل في استخلاص الجديد من القديم، وأقصد بذلك الاختراعات والتطورات الثقافية الجديدة التي تفرض على اللّغة كشفها واستيعاب حيثياتها. فاستخلاص العطر من بتلات الورد وإن كان مثالا يُضرب لجدلية الطبيعة والثقافة فإنّه في ذات الوقت، يحيل ضمنيا إلى ارتباط اللّغة بالثقافة والتأثير المتبادل بين الإثنين. لنأخذ مثالا آخر يُؤَسِّسُ للتأويل الثقافي للمادة اللّغوية. فالسؤال عن الحال في التحية كفعل خطابي يتّخذ شكلَ ممارسة ثقافية بين سياقات مختلفة يمكن أن يكون مثالا دقيقا للترابط الانعكاسي بين اللّغة والثقافة. فجملة كيف حالك؟ التي تحيل إلى إلقاء تحية كممارسة ثقافية تجد معناها في لغة أهل "بولنيزيا الفرنسية Polynésie française" في شكل جملة مختلفة عنها التي هي، كيف تذهب؟

المنارة للاستشارات

ISSN: 2437-041X
E-ISSN :2588-2325

لست أقصد هنا مناقشة إشكالات ترجمة فعل ثقافي بسلوك لغوي أو إمكانية ترجمة سلوك لغوي بفعل ثقافي. وإنّما يكون المثال مطابقا لما ذهب إليه إدوار سابير؛ بأنّ من الخطأ الظنُّ بأنّه يمكن فهم الثقافة من المراقبة الدقيقة وحدها، دون إرشاد الرمز اللّغوي الذي يكسو الثقافة أهميتها، ويجعلها مفهومة عند الناس (الغوث، 2019، ص. 43). إنّ ادّعاء سابير وإن كان في الأصل ذا منحى منهجي أُستخدم لنقد التقليد الأنثروبولوجي الكلاسيكي في دراسة وفهم الثقافة، فإنّه يؤكد على أهمية الاعتماد باللّغة لفهم الفعل الثقافي. وأدّعي هنا إمكانية العكس أيضا، أي الاعتماد على الثقافة في فهم وتفسير السلوك اللّغوي، على الأقل في بعض جوانبها. أريد أن أقول هنا بأّن ثقافية التعبير اللّغوي، ولغوية السلوك الثقافي، تأخذ أشكالا مختلفة في الدراسات الألسنية سواء في اللسانيات الاجتماعية أو في الأنثروبولوجيا الألسنية أو في سوسيولوجيا اللّغة.

إنّ اللّغة من هذا المنظور السوسيو-أنثروبولوجي ليست فقط وسيلة التواصل بين أفراد الجماعة في حاضرهم وإنما تُشكل في ذات الوقت الجهاز التواصلي بين أجيال الجماعة المتعاقبة، والذي ينقل تجارب الماضي كمعرفة وكذاكرة إلى حيثيات الحاضر عبر التنشئة الأولية حينا وعن طريق التنشئة المدرسية(التعليم) حينا آخر. ومن خلال هذه الوسيلة التواصلية بين الماضي والحاضر للّغة تتقاطع اللّغة من منظورها الأنثروبولوجي مع الذاكرة الجماعية للجماعة.

3. اللسان والفكروالمجتمع

في مداخلته لدراسة فعل الخطاب يدّعي ميشيل فوكو؛ بأنّنا بطريقة أو بأخرى نَتَذَوَّتُ داخل مساحة خطابية معيّنة أو سلطة رمزية قد نقاومها، غير أنّنا في نهاية المطاف نتذوّت في مداها (فوكو، 1971، ص. 28). وإذ نحن نستحضر فوكو هنا فإنّنا على وعيٍ بِكَوْنِ طرحه أحاديةَ البعد، حيث إنّ تذوّتنا في إطار المساحة الخطابية يمكن أنْ يتمثّل في تحديد فعل الخطاب لحيثيات الفكر أو على الأقل أسبقية الأول(فعل الخطاب) على الثاني(فعل التفكير). ولسنا هنا لنناقش فوكو عمّا إذا كان الأول يسبق الثاني أو العكس. وإنّما نحاول هنا فحص الترابط الانعكاسي والأفقي بين الاثنين (الخطاب والفكر). ويمكن أنْ يذهب أحدُنا إلى أنّ فوكو يشير هنا إلى السلطة الرمزية للّغة على الأفراد. وبالفعل ذكر فوكو ذلك تحت مفهوم "السلطة الرمزية". غير أنّ ما نراه جديرا للمناقشة هنا هو عمّا إذا كانت هناك إمكانية الحديث عن سلطة رمزية للّغة بمعزل عن فكر "مجتمعات الخطاب" بتعبير فوكو. وبلغة أخرى عمّا إذا كانت هناك إمكانية الحديث عن سلطة لغوية بمعزل عن "الهيمنة" بمفهومها الغرامشي نسبة إلى أنتوني غرامشي. إنّ الهيمنة بمعناها الغرامشي تقوم على الأيديولوجيا،

المنارة للاستشارات

ISSN: 2437-041X
E-ISSN :2588-2325

وفي تقديري ليست هذه الأخيرة، الأيديولوجيا، خارجة عن فكر "الجماعة اللّغوية" ولا خارجة عن فكر "مجتمعات الخطاب". وعلى هذا الأساس فإنّ المنبع المشترك بين هذا الثالوث (اللسان، الفكر، المجتمع) في اعتقادي وكما يدّعي اللساني الفرنسي Émile Benvenisteذلك هو؛ ملكة التمثيل الرمزي لدى الانسان. يعتقد Émile Benveniste بأنّ هذه الملكة، التمثيل الرمزي، هي أساس الوظائف المفهومية (سبيلاو بن عبد العالي، 2005، ص. 63-62). وبذلك لا يكون التفكير أكثر من القدرة على صناعة تمثيلات للأشياء وعلى استخدام هذه التمثيلات في فعل الخطاب أو في التعبير اللّغوي. إنّ التحوّل الرمزي لعناصر الواقع أو للتجربة إلى مفاهيم هو؛ حسبا بنفيسة عمليةٌ يتم عن طريقها اكتمال القدرة المُعَقْلَنة للفكر التي ليست سوى انعكاساتا لواقع الاجتماعي والثقافي. إنّ التعبير اللّغوي بهذا المعنى بالإضافة إلى الغاية التواصلية التي يحقّقها، يؤدي وظائف يتجسّد في الترابط الأفقي بين اللسان والفكر والمجتمع في بعضها بأثر رجعي. فمثلا يرى اللساني الروسي Roman Ossipovitch Jakobson بأنّ التعبير اللّغوي يؤدي ثلاث وظائف أساسية وهي؛ الوظيفة الدلالية والوظيفية الفكرية والوظيفة المرجعية (سبيلاو بن عبد العالي، 2005، ص. 67). وما يهمنا هنا أكثر هو؛ الوظيفة المرجعية التي تتمثّل في فكّ الشفرة الاجتماعية التي تكون بالضرورة مرجعية مشتركة لمجتمعات الخطاب.

قبل أنْ تأتي مهمة الوظيفة الفكرية لتتمثّل في الجانب الاجتماعي للّغة وهو اللسان عند دو سوسير. إذ لا يكون الأفراد قادرين على تحويره. فهي، الوظيفة الفكرية، بهذا المعنى عَقْدٌ جماعي بالأساس. ومن خلال هذا العقد الجماعي يتحقّق التواصل التعاقبي بين أجيال الجماعة اللّغوية عن طريق ذاكرتهم الجماعية. ومن هنا يمكننا القول؛ بأنّ الشفرة الاجتماعية التي تؤدي الوظيفة المرجعية وظيفةَ فكّها تُمثّل ترابط اللّسان بالمجتمع، وأنّ الوظيفة الفكرية تُمثّل ترابط أجيال الجماعة اللّغوية عبر منظومة فكرية محددة(الفكر). وتعطي هذه الجدلية بالضرورة ترابط اللّغة بالذاكرة بوصف الأولى وعاءً للثانية كما رأينا ذلك. وهذا ما سنناقشه في المحور التالي وذلك بمحاولة استكشاف كيفية اعتماد مشروع الاستعمار الفرنسي في السنغال على اللّغة الفرنسية في تفكيك البنى الثقافية التي تتضمن بالضرورة ذاكرة جماعية للأهالي. سنحاول في هذا المحور مناقشةَ كيف تمت إعادة تشكيل هذه الذاكرة عن طريق اللّغة نفسها وذلك بإعادة تركيب نظام المعرفة وإعادة التوزيع الاجتماعي للمعرفة؟

4. اللّغة والذاكرة في المستعمَرات الإفريقية: قصة تقطيع الأوصال وتجديد العضوية!

المنارة للاستشارات

ترتبط إشكالات تفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة صياغتها في السياقات الاستعمارية بالعلاقة بين الذات والآخر. وفي السياق الإفريقي عموما يتمثّل أهم لقاءات هذه الذات بالآخر في مرحلتين مفصليتين أو في حدثين تاريخيين؛ الأول يتمثّل في الاسترقاق في القرن الخامس عشر خصوصا. وقد تَشَكَّلَتْ للذات الإفريقية في هذا اللقاء صورةٌ عن نفسها وعن العالم كما تَشَكَّلَتْ في المقابل صورةُ العالم عن هذه الذات الإفريقية. وأما الثاني فيتعلّق الأمر فيه بالاستعمار كحدث اتصاليٍّ جَسَّدَ كلَّ أشكال التناقض والتعقيد في علاقة الذات الإفريقية بالآخر. وهذا ما حاول Ngugi Wa Thong'o مناقشتَهُ وذلك في كتابه something torn and new (2009)، حيث اعتبر الكاتب هاتين المرحلتين كمفاصيل في الحركة التاريخية في إفريقيا، ولَخَّصَ المنطلقَ الداخلي لطريقة اشتغال العلاقة بين الذات والآخر في مفهومي dismembering and remembering (تقطيع الأوصال، وتجديد العضوية عبر إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية). ففي الحدث الأول (الاسترقاق)، كانت عملية dismembering حسب Wa Thong'o ترتكز على البعد اللّغوي ورمزية الأسماء. أي على ما هو رمزي في ثقافة التسمية. فمثلا يُعْتبر تَغْيِير أسماء العبيد وكتابةُ أسماءٍ ورموزٍ ذات دلالات لغوية على أبدانهم نقطة الانطلاقة لسَحْبِ هؤلاء العبيد من ذاكرتهم الجماعية في إفريقيا وماضيهم التاريخي. ومن خلال منعهم عن التحدث باللّغات الإفريقية في Diaspora (المهجر) على المدى البعيد تحقق نسيانهم للغاتهم وبذلك قَطَعُوا كل صلات هؤلاء العبيد بذاكرتهم الجماعية وماضيهم الإفريقي. ويفسر واثيونغو هذا الوضع بمفهوم "الإبادة اللغوية"(Wa Thong'o, 2009). وأما الحدث الثاني، الاستعمار، فكانت عمليات dismembering فيه تتعلق بتفكيك الذاكرة الجماعية للأهالي وإعادة تركيبها، وذلك عن طريق المدرسة التي أسّسها المستعمِر في المجتمعات المستعمرَة. ويستعين الكاتب في تفسير هذا الوضع بمفهوم "المجاعة اللغوية". يرجع Wa Thong'o في هذه النقطة بالذات إلى الروائي السنغالي Cheikh H. Kane في روايته Ambiguous Adventure (1979)، حيث يدّعي H. Kane في هذه الرواية بأنّ القوى الاستعمارية تُدَاوِي بذكاءٍ كما تَقْتُلُ بِخِبْرَةً. وتستخدم في ذلك السلطة الرمزية للمدرسة وللّغة التي بها يتم سَحْبُ الأهالي من ذاكرتهم وماضيهم (Kane, 1974, P. 61). فالروائي هنا يعبّر عن كيف أنّ القوى المستعمِرة الفرنسية في السنغال تَمَكّنَتْ من هدم ما كان موجودا وإعادة بناءه بطريقة يَصْعُبُ فيها الفصل بين ما كان قائما وما أُقِيمَ محله عن طريق المدرسة الفرنسية ولغتها. وهكذا تحدث إسماعيل ناشف في دراسته لظاهرة اللغة العربية في أوساط الجماعة الفلسطينية في إسرائيل؛ على أنّ هؤلاء يعانون من فقدان القدرة على الفقد (ناشف، 2018، ص35). تتمثّل عَمَلِيَتَا dismembering and rememberingفي السياق السنغالي في السياسات اللّغوية والتعليمية التي وضعها المستعمر الفرنسي، حيث إنّ عملية dismembering(تقطيع الأوصال)، أو سحب

المنارة للاستشارات

ISSN: 2437-041X
E-ISSN :2588-2325

الجماعة الوطنية من ذاكرتهم الجماعية تمثّلت في مواجهة المستعمر الفرنسي لنموذج المدرسة التي كانت موجودة في تلك الفترة. والتي كانت تقوم على التعليم التقليدي للعلوم الاسلامية وعلوم اللّغة العربية. فكانت الوسيلة التي تبنباها حكم الاستعمار في تقطيع أوصال الأهالي من نموذج هذه المدرسة والتي كانت تُشَكِّلُ جزء مهما في الذاكرة الجماعية للسنغاليين، سياسات اللّغة الفرنسية التي كانت تتمثّل في تدريسها كلغة رسمية للإدارة ولغة المعرفة. كما أنّ العملية تقطيع الأوصال من الذاكرة الجماعية كانت تشمل تفكيك نظام المعرفة وطرق توزيعها الاجتماعية. حيث لم يكتف النظام الاستعماري بفرض اللّغة الفرنسية لغة للمعرفة، وإنما تمّ قلب نظام المعرفة الذي كان يقوم على الثقافة الشفاهية أكثر من الكتابية. فَكَوْنُ اللّغة الفرنسية لغة المعرفة كان بالضرورة سيسفر عن تغيير التوزيع الاجتماعي للمعرفة عن طريقة الكتابة وبذلك يتبدل مصدر المعرفة من الشفاهة إلى الكتابة. الأمر الذي سينتج منه فقدان جزء مهم من الذاكرة الشفاهية، وفقدان الاعتبار لكل من لا يمتلك هذه المعرفة بلغتها الجديدة(الفرنسية) ومهارتها المعتمدة (الكتابة). وأما عملية remembering أي إعادة تجديد عضوية الأفراد في الجماعة الوطنية فتتمثّل في صناعة النخب الوطنية والمعرفة باللّغة الفرنسية، وبذلك تصبح الفرنسية موردا ضروريا ورأسمالا رمزيا ثقافيا للتمايز الاجتماعي والمهني.

وعلى هذا الأساس قد لا نجانب الحقيقة حالما ندّعي بأنّ الفعل الكولونيالي كحدث تاريخي مَثَّلَ أهم لقاء اتصاليّ وتفاعلي "للذات السنغالية"(الأنا) مع الآخر بشكل أسفر عن تفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة بناءها بشكل تَفَكَّكَ إِثْرَهُ الجسد الاجتماعي للمجتمع السنغالي ككل. لإنّ التجربة السنغالية مع المستعمر الفرنسي لا يمكن بأي حال من الأحوال تصوّرها ومقاربتها بمعزل عن التجارب الاستعمارية الأخرى التي تحدث واثيونغو وآخرون عنها. سواء تلك التي عرفها الإقليم من المستعمر الفرنسي أو التي عرفتها دول إفريقية أخرى تحت الاستعمار البريطاني أو البرتغالي. غير أنّ ما يُشَكِّل فارقا أساسيا بين تجربة وأخرى في اعتقادي هو خصوصيات البنى الاجتماعية في المستعمَرات وانعكاساتها على الإدارة الاستعمارية في كل مجتمع على حدة. إنّ المقولة أعلاه والتي تتمحور حول كون لقاء "الأنا السنغالية" بالآخر المستعمِر أهم لقاء لهذه الذات بالآخر بشكل أسفر عن إعادة تشكيل الذاكرة الجماعية وإعادة تركيب الجسد المعرفي في المجتمع، لا يعني بأي حال من الأحوال أنّ تاريخ السنغال بدأ مع الاستعمار، ولا يعني أيضا بأنّ هذه الذاكرة عرفت أول تفاعل مع الآخر عند دخول المستعمر في أراضيها. إذ أنّها، الذاكرة السنغالية، تفاعلت قبل الاستعمار مع التُجّار الذين أدخلوا الاسلام والعربية في السنغال وخصوصا في القرن الحادي عشر الميلادي (فيصل، 1997، ص. 129).

المنارة للاستشارات

غير أنّ دخول الاسلام والعربية في السنغال عن طريق هؤلاء التُجّار وإنْ ساهم بشكل كبير في تفكيك البناء الكلي للجسد الاجتماعي وغَيَّرَ تصورَ هذه الأنا للآخر وعلاقتها به، فإنّ حدّةَ التفكُّكات التي حصلت في الجسد الاجتماعي وما صاحبها من تغييرات على مستوى التوزيع الاجتماعي للمعرفة في فترة الاستعمار الفرنسي، تتمثّل أهم أسبابها في المنظومة التعليمية التي أنشأها المستعمِر بلغة جديدة (الفرنسية) والتي بالضرورة تحمل ثقافة جديدة من شأنها تفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة تشكيلها بشكل يخدم المشروع الاستعماري كما رأينا ذلك. وستكون هذه الثقافة والذاكرة مدخلا جديدا للذات السنغالية في إعطاء معنى للعالم وفي تصورها للآخر (Kane, 1974, P79). وهذا ما ذهب إليه Wa Thong'o في كتاب آخر له "decolonizing the mind (1986)" بأنّ إعادة تركيب أنظمة التعليم بلغة المستعمر التي تُعتبر بالنسبة لواثيونغو مُحَرِّكا للجسد المعرفي، ستعيد تركيب الذاكرة الجماعية وتصوّر الذات للآخر وعلاقتها به كما ستُغَيّرُ موقفَ هذه الذات من العالم (Wa Thong'o, 1986). إنّ قرار فرض اللّغة الفرنسية في المنظومة التعليمية في السنغال من خلال المؤسسات التعليمية التي أقامها المستعمِر في السنغال من أول تربوي فرنسي أُرسل إلى المنطقة Jean Dard 1816م مرورا بتأسيس école mutuele de saint luis (مدرسة الأقران 1906م في مدينة "القديس لويز" العاصمة الأولى للسنغال)، ثم تأسيس école du village (مدرسة القرية 1908م) و école regionale (المدرسة الإقليمية 1908م) إلى école normale de saint luis (مدرسة تكوين التربويين في العاصمة الأولى 1917)، شَكَّلَ مسارا لتفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة تشكيلها من خلال قلب نظام المعرفة من الشفاهة إلى الكتابة. كما تشكّلت طرق جديدة للتوزيع الاجتماعي لهذه المعرفة (Seck, 2015, P. 38). وإلى جانب كون اللّغة الفرنسية لغة الكتابة والإدارة والتعليم الذي تمحور أغلب جزئياته حول مقارنة التراجيديا (التاريخي الدموي للأهالي) بحاضرهم الذي زعم المستعمِر أنّه واقع تحضيري وتأهيلي لِغَدٍ حضاري تقدمي وفق البراديغم الأوروبي. كانت اللّغة الفرنسية وهذه المنظومة التعليمية في الآن ذاته سُلَّما للترقي والتمايز الاجتماعي ولصناعة نخبة وطنية مساعدة للإدارة الاستعمارية سواء كإداريين في الإدارة الاستعمارية أو كمدربين مساعدين للتربويين الفرنسيين قبل أن يتم إدماج خريجي école normale de saint luis (مدرسة تكوين التربويين) في المنظومة التعليمية كتربويين من الأهالي seck, 2015, P. 46). وبهذا التحوّل البنيوي في الساحة اللّغوية والتربوية في المجتمع المحلي طَرَأَتْ على جميع الشرائح الاجتماعية تغيرات بنيوية سواء على مستوى علاقاتها بذاتها أو على مستوى علاقاتها بالآخر والعالم. وذلك لتفكّك الذاكرة الجماعية وإعادة تَشَكُّلها.

المنارة للاستشارات

إنّ اتخاذنا للّغة الفرنسية مدخلا تحليليا لفهم الاستعمار الفرنسي في المجتمع السنغالي يعني في ذات الوقت أنّنا ننظر إلى اللّغة كسلطة رمزية وإلى الاستعمار كسلطة لها دلالات رمزية أيضا. الأمر الذي سيحيل بالضرورة إلى أنّ ما خلفته هذه الدلالات الرمزية لسلطة الاستعمار سيتغلغل في الجسد الاجتماعي للمجتمع بأشكال مختلفة عن طريق هذه اللّغة الجديدة. فالاستعمار حين يعلي من شأن الجنس الأبيض على الشعوب غير الأوروبية يخلق احساسا بالاغتراب في هوية هذه الشعوب، ضمن ظروف يتم فيها اعتبار تاريخ المستعمر الأبيض وثقافته ولغته وتقاليده ومعتقداته كونية ومتفوقة بالنسبة لثقافة المستعمر، بما يخلق إحساسا بالدونية داخل هذا المستعمَر. ويقوده إلى تبني لغة المستعمر وثقافته وتقاليده في محاولة لمواجهة هذا الشعور بالدّونية (Fanon, 1952, P. 59).

إنّ تحوّل نظام المعرفة في المجتمع من الشفاهة إلى الكتابة باللّغة الفرنسية يعني بداية مرحلة جديدة للتعبير عن علاقة الفكر بالمجتمع. وبداية لحقبة تاريخية جديدة لأدب إفريقي يتم التعبير عنه بلغة الآخر أي لغة المستعمر. قد تبدو الكتابة بلغة الآخر مسألة عادية وهذا نوقشت في دراسات مابعد الاستعمار في أكثر من سياق. ولعل مداخلات إيميه سيزار في قضية مساءلته في تعبيره عن أدب الزنوجة باللّغة الفرنسية تمثّل أبرز هذه المناقشات. لكن النظر من زاوية العلاقة الانعكاسية بين النّص والمجتمع يعطي لمسألة الكتابة بلغة الآخر طابعا معّقدا. فالنّص قد يعكس الواقع الذي أنتجه، والحقبة التاريخية التي أُنتج فيها. الأمر الذي يعطي للّغة ثقافةً ما وللثقافة لغةً ما! بلغة أخرى، فالكتابة بلغة المستعمر الفرنسي والتعبير عن الذات بها، لا تتوقف على كون هذه اللّغة أداة تواصلية مع العالم. بل أبعد من ذلك فإنّ عملية التعبير عن الذات بهذه اللّغة الجديدة شكّلت مرحلة جديدة للتعبير الذات وهي مرحلة عبّرت فيها الذات عن نفسها بلغة الثقافة الامبريالية الفرنسية على حساب التعبير عن نفسها بلغة ثقافة الأهالي التي تجسّد ذاكرتها الجماعية.

إنّ الذاكرة حسب التعريف أعلاه تعني استحضار وتمثّل الماضي ومساءلة هذا الماضي في التعامل مع الواقع وعملية صياغة غايات المستقبل. وذلك يعني أنّها ستكون شكلا من أشكال تغلغل ما خلّفته الاستعمار في الجسم الاجتماعي والجسد المعرفي في المستعمَرات. وبذلك تصبح هذه الذاكرة سلطة رمزية تَحْكُمُ توجهات المجتمع المؤسساتية والفردية. نحاول في هذه المقولة استكشاف كيف أنّ الذاكرة الجماعية (أيا كانت) بغض النظر عن درجة فاعليتها في واقع المجتمع، تمارس على الجماعات سلطة رمزية. وإذا افترضنا بأنّ للذاكرة سلطة رمزية تمارسها على الجماعات، وأثبتنا أعلاه بأنّ تاريخ المجتمع السنغالي لم يبدأ مع الاستعمار، فإنّنا في ذلك ندّعي وجود ذاكرة جماعية قبل الذاكرة الاستعمارية. وهي الذاكرة التي تَمَكَّنَتْ القوة الاستعمارية من تفكيكها بعمليات

المنارة للاستشارات

ISSN: 2437-041X
E-ISSN :2588-2325

dismembering and remembering، ونَتَجَ عن ذلك ما يمكن تسميته ب "المجاعة اللغة بتعبير واثيونغو(Wa Thong'o, 2009). فأسمي هذه العملية أي عملية تفكيك الذاكرة الجماعية وإعادة تشكيلها؛ بالانتقال من سطلة الذاكرة إلى ذاكرة السلطة، بعبارة الأخرى الانتقال من التعبير عن الذات بلغة الثقافة إلى التعبير عن الذات بثقافة اللغة. أي أن المجتمع إثر عمليات dismembering and remembering انتقل من السلطة التي كانت تمارسها عليه ذاكرته الجماعية الما قبل الاستعمارية إلى ذاكرة الاستعمار التي قررنا أنْ نسميها سلطة رمزية هنا.

خاتمة

حاولنا في هذه الورقة استكشاف الترابط الانعكاسي والارتدادي بين اللّغة والثقافة والذاكرة لنؤسس عليها مقولة؛ أنّ اللغة الفرنسية لعبت دور تفكيك الذاكرة الجماعية الما قبل الاستعمارية في السنغال. كما تمكنت هذه اللّغة من قلب نظام المعرفة وإعادة توزيعها اجتماعيا. إنّ هذه المقولة تتأسس على النظر إلى الثقافة ككل مركب يشمل اللّغة وإلى اللّغة كوعاء يحمل ثقل الذاكرة. وبذلك تكون للّغة قدرة تفكيك الذاكرات الجماعية وإعادة تشكليها بشكل يخدم المستويات الثقافية والفكرية للّغة. وإذا تعلّق الأمر بالسياق الاستعماري في السنغال فإنّ العملية تمثّلت في كون اللّغة الفرنسية لغة المعرفة والمدرسة الاستعمارية التي لعبت دور إعادة تشكيل الجسد المعرفي وإعادة توزيع هذه المعرفة اجتماعيا. الأمر الذي أسفر عن هيمنة اللّغة الفرنسية على الساحة اللّغوية لكونها لغة الترقي المهني والاجتماعي عن طريق المعرفة. ولم تنته هيمنة هذه اللّغة في كونها لغة المعرفة والترقي المهني والاجتماعي، وإنّما خلقت في المجتمع المحلي ما سمّاه Ngugi Wa Thong'oب"المجاعة اللّغوية". أي جَعْلُ اللّغات المحلية على أنْ تصبح غير قادرة على التعبير والاستيعاب عمّا يحيط بها. إنّ اللغة الفرنسية في ذلك تمكنت من جعل المجتمع السنغالي ما بعد الاستعماري يعرف انتقالا من السلطة التي كانت ذاكرته الجماعية الما قبل الاستعمارية تمارسها عليه في سبيل التحكم على خياراته وتوجهاته إلى ذاكرة تنحصر على السلطة الرمزية للاستعمار. فيصبح هناك نوع من القناعة للمجتمع بأنّ تاريخه بدأ مع الاستعمار، الشيء الذي يجانب الحقيقة حسب ما ادّعيناه في هذا النص.

قائمة المصادر والمراجع:

الغوث، م .(2020). *اللغة و الهوية*. لبنان: الروافد الثقافية ناشرون.

المنارة للاستشارات

ISSN: 2437-041X
E-ISSN :2588-2325

بورديو, ب .(2007). *الرمز و السلطة* .المغرب: توبقال للنشر.

تشومسكي, ن .(2017). *اي نوع من المخلوقات نحن؟* .عمان: كنوز المعرفة للنشر و التوزيع.

دورنتي, ا .(2013). *الانثروبولوجيا الالسنية* .لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

سبيلا, م & ,.بن عبد العالي, ع. ا .(2005). *اللغة : نصوص مختار* .المغرب: توبقال للنشر.

سي, غ. ن .(2013). *فانون المخيلة بعدالكولونيالية* .الدوحة: المركز العربي للابحاث و الدراسات.

غبسون, ن. س .(2013). *فانون المخيلة بعد الكولونيالية* .الدوحة: المركز العربي للابحاث و الدراسات.

فوكو, م .(1971). *نظام الخطاب* .لبنان: التنوير للنشر و التوزيع.

كرامش, ك .(2010). *اللغة و الثقافة* .قطر: وزارة الثقافة و الفنون و التراث.

ناشف, ا .(2018). *اللغة العربية في النظام الصهيوني.قصة قناع استعماري* .الدوحة: المركز العربي للابحاث و دراسة السياسات.

Bhabha, K. (1994). *the location of culture*. London: Routledge.

Kane, H. C. (1974). *l'Adventure Ambigue*. Paris: les presses de l'imprimerie.

Seck, D. (2015). *l'histoire scolaire au Sénégale, 1962-2014: une analyse des contenus et des méthodes d'enseignement*. Senegale: Harmatan.

Wa thongo, N. (1987). *decolonizing the mind*. Zimbabwe: Zimbabwe publishing.

wa thongo, n. (2009). *somthing torn and new: an africain renaissance*. London: Basic Civitas Books.

المنارة للاستشارات